

للمهروض بالغة العربية يجب

- ١) توثيق الروابط بين العرب
- ٢) الاتصال برجل الشارح
- ٣) تضييق الشقة بين العامية والفصحى

الدكتور عبد الكريم الأشتر

كلية الآداب (دمشق)

تكسر أحد اطرافها حتى ننفذ من الطوق . على أنني اعتقد ، مع ذلك ، أن نمو قدراتنا المادية على أي وجه ، حتى نتكمن من التأثير في حياة العصر السياسية والامتدادية والفكرية ، يعين لغتنا على أن تنهض وتنتشر وتفرض نفسها على الناس ، على نحو من الإنحاء ولكن هذا لا يعني أننا نصل بذلك إلى حل مشكلات اللغة ، وتذليل العقبات التي تعترض سيرها ، وتحد من انتشارها ، نستظل لغتنا عاجزة عن أن تكون إحدى لغات حضارة العصر ما لم نهد لها سبل الإصلاح من الداخل ، حتى نهرن وتسهل وتغني بعمارف العصر ، فتقوى على أن تخاطب الإنسان المعاصر من أي جنس ، في أي شأن من شؤون الحياة ، خطابا سهلا دقيقا ميسرا غنيا .

* * *

1 - ان صعوبة قواعد العربية ، في رأينا ، نحواً وصرفاً وإملاءً ، وتعقدها واشتباكها عقبة أساسية أولى لا تنكر أبداً ، وان تغافلت عنها فئة دفنت رأسها في رمال العصور ، ووقفت لكل حركة إصلاحية فيها بالتسفيه حيناً ، والتنقيص حيناً ، والكيد والتجريح والشغب أحياناً كثيرة . فهؤلاء يفوتون علينا - دون أن يشعروا - فرص اللحاق بالقطار في أسرع وقت ، بحجة الحفاظ على كيان اللغة وكيان الفكر العربي وتماسكه وأصالته من خلالها ، كان كل من دعا إلى الإصلاح منهم مسبقاً بالتفريط في تراثه الحضاري وقيمه العظيمة . على أن هذا الإصلاح ينبغي أن تتولاه حقا أيد مؤنثة جريئة عالمة حريصة على ملامح وجودنا التاريخي وأصالته ، وعلى متانة روابطها الفكرية والروحية بتراثنا العظيم ، في مناحي حياتنا كلها . ولعل أخطر ما

تلقيت كتابكم ، واحمد لكم أنكم اعترتم قضايا اللغة العربية في عصرنا هذا الاهتمام الواسع ، حتى يجعل منها آلة مرنة للفكر العربي الحديث ، تادرة على أن تستجيب لحاجات العصر المادية والفكرية وان تسعها في يسر وغنى . واعتقد ان الاسئلة الخمسة التي طرحتها في كتابكم يتصل بعضها ببعض ويتفرع بعضها عن بعض ، فان ما تعانته لغتنا خارج الجامعة ، من نقص في التعبير عن حياتنا المادية والفكرية ، وفي تطويرها ، هو ما تعانته داخل الجامعة ، وان اتسع المدى هناك وضاق هنا . فاذا سلحت اللغة للحياة خارج الجامعة صلحت داخلها . ثم ان ايجاد المصطلح العلمي المناسب للكشوف الحضارية الجديدة ، في ميادينها الانسانية كلها ، ينبغي ان نجد له الحل داخل الجامعة وخارجها على السواء ، فانه من المتعذر ان تنقطع الجامعة عن الحياة الجارية من حولها ، خشية ان تعزلها الحياة وهي الاتوى ، لانها المورد والمصدر - وتتنكر لها ، وتلغي رسالتها الرامية الى توثيق صلتها بحياة المجتمع المتخلف ، لتطويره تطويراً ناجزاً في ميادين الحياة كلها .

* * *

ولعل « أهم المشكلات التي تعترض سير اللغة العربية ، وتحد من انتشارها بسرعة في العالم » تكمن في أنها ، قبل كل شيء ، لغة محلية ، لانها لغة متخلفة عن ركب الحضارة في هذا العصر ، بعيدة عن منابع التأثير في سياسة العالم واقتصاده وفكره وروحته . على أنني لا اجعل ان تخلف لغتنا بدوره يقصر بنا عن مجازاة هذا الركب والتأثير في مسيرته الكبرى ، فتلك حلقة التأثير والتأثر التي كتب علينا ان

يعطل هذا الإصلاح هو جمود ابرز علماء العرب المعاصرين بلغتهم وتراثها ، وعجزهم عن فهم المرحلة التاريخية الصعبة التي تجتازها امتهم ، وفهم ثقافتها الحديثة ، لانتطاعهم عن حياة العصر وعن منابعها الجارية بعيدا عنهم ، فهم يحسبون - لضالة الساحة التي يطولون عليها من نوافذها الضيقة - اننا نضطرب في قلب الحياة ، ونحن في حقيقة الامر ، انما نجول على حواشيتها المظلمة ، ونقوم - على مسرحها الكبير - بدور الجوتة لا غير .

ولعل من المؤلم ان نعجز اليوم ، ولنا مجامعنا وجامعاتنا ومعاهدنا ومؤسساتنا الفكرية الكثيرة ووسائل اعلامنا الحديثة النمية ، عن تحقيق ما حقته افراد الرواد الذين عاشوا في مطلع النهضة الحديثة ، في القرن التاسع عشر (أمثال الطهطاوي والشدياق والبستاني وغيرهم) ، من السعي في خلق اللغثة الحديثة الدمثة السهلة الغنية بمصطلحات العلم والثقافة المختلفة ، حتى لكأننا ينقصنا ايمانهم بامتهم وانفسهم وتراثهم وقدرتهم على البقاء والنمو والتجسد ومواجهة حضارة العصر ، من اوسع الاسباب

وتتصل بقضية خلق المصطلح الحضاري الحديث في لغتنا مسألتان :

الاولى : مسألة توثيق الروابط بين اقطار الوطن العربي في المشرق والمغرب . فان هذا بالسبغ الاهمية في الوصول الى المصطلح المناسب وفي شيوعه واغناؤه وتطويره ، على ان ينهض المكتب الدائم لتنسيق التعريب بمهمة التوجيه والتعميم . ولعل هذا الاتصال الفكري وتعميقه وتوثيق اسبابه اجسدى علينا ، آخر الامر ، من دعاوي السياسة ومفارقاتها الكثيرة . ونحن في المشرق ينبغي الا نماري في اننا نكاد نهجل تراث المغرب العربي الفكري والعلمي والادبي ، في التقديم والحديث .

فلعل رعايتنا لهذا التراث العظيم في المغرب يزيد من قدرتنا على الاشتقاق والتوليد واختيار المصطلح المناسب لنا جميعا .

والثانية : اتصال رجل اللغة فينا بالشارع ، والكف عن احتقاره اياه ، وعن عده بيئة منحرفة عن تواعد اللبقة اللغوية . فهذا الاتصال يبسر لنا ان نفهم الحياة من حولنا ونقبلها ونأخذ منها ونعطيها ، فانه ينبغي الا ننسى ، في اي حال ، أن الشارع أقرب الى الحياة منا ، واننا انما نعمل على اغناء حياته وتطويرها . ولن يتيسر لنا ذلك دون ان نتصل به ونقدره قدره ، وسنجد اننا نلقى فيه كنوزا من المعربات الجارية السهلة تغنينا عن نحت مصطلحات جديدة قد لا يكتب لها النصر في معركة الحياة في الشارع من بعد ، وهي المعركة الوحيدة الحاسمة في حياة هذا المصطلح .

ثم ان هذا الاتصال يجعلنا اقدر على اختيار المصطلح المناسب ، وعلى اشتقاقه وتوليده وصياغته ، فلا يرفضه الشارع من بعد .

وقد اصطفينا مجموعات من العلماء في مجامعنا العلمية ليقوموا بتحييص حركات الإصلاح وتغذيتها وتوجيهها من ناحية ، وليسهروا على حركات التعريب والاشتقاق والتوليد ويقوموها ويشقوا لها السبل الصحيحة من ناحية اخرى ، ولكنهم ، لاسباب كثيرة ، وتفسوا من ذلك عند حد .

2 - ان حركة التعريب والاشتقاق والتوليد هذه تعنى بتذليل العقبة الاساسية الثانية ، وهي نقص المصطلح العلمي والفني الحديث في لغتنا ، وتنشيطها يعني تنشيط المؤسسات العلمية والفكرية ، على اختلافها ، في انحاء الوطن العربي كله ، لتكوين جيل من العلماء منفتح على حضارة العصر وثقافته النامية من ناحية ، وقادر على البحث والتنقيب في تراثنا القديم كله ادبا ولغة وتاريخا وفلسفة ومقما وعلوما ومعجمات من ناحية اخرى ، حتى تحيي الصالح مما يفي بهذا المصطلح ، او يعوض عنه تعويضا دقيقا حيا ، او نشق له من اصول لغتنا وموادها ، او نصوغ له في آخر الامر صيغة نرضاها ويطنن اليها نظام اللغة الصوتي الذي تخضع له في تصريفها . وينبغي الا نقطع صلتنا بالناس في الوصول الى هذا المصطلح والا نتجاهل الحياة الجارية من حولنا ، وان نرعى لها منطقيا فلا نقسرها على قبول ما لا تقبله او ما تجاوزته منذ زمن . ثم ينبغي ، من ناحية اخرى ، ان نفيد من الجهود الفردية المبذولة ، عن طريق الصحافة والكتاب والمحاضرة ووسائل الاعلام المختلفة . ثم ان يجرى التنسيق - على مستوى الوطن العربي - بين هذه الاطراف كلها ، وتعمم نتاجه تعميما سريعا تقويه حركة تبادل ثقافي نشيطة بين اقطار الوطن العربي في المشرق والمغرب .

3 - وقد يعودنا هذا ، بالتالي ، على تصنيف
الثقة بين العامية والفصحى - وهي العقبة
الاساسية الثالثة - حتى نصل الى اللغة الوسطى
التي تحفظ قدرة الفصحى وغناها واسلوبها الاصيل
في التركيب والصياغة ، وتصل في الوقت نفسه الى
البساطة والسهولة اللتين تتوخاهما للغتنا . وبهذا
يتيسر لنا امتلاك الشارع من بعد ، وتوجيهه ،
والانفاة من طاقاته الكبيرة .

* * *

هذه هي ، في رأبي ، اهم العقبات التي تعوق اللغة
العربية عن أن تسع الحياة الحديثة وتغني بها ،

ويزداد اثرها في الناس ، ويمتد انتشارها في العالم ،
ويصلح بها التعليم في الجامعة وخارجها . فاذا ذللت
هذه العقبات - وتلك طريق ينبغي الا يثنيها طولها
ومشاتها عن النكوص عنها - وتها لنا - في الوقت
نفسه - أن ندعم موقفنا من سياسة العالم واقتصاده،
كان لنا ما نرجوه من بعد الاثر وحسن الصنيع في
الحضارة الانسانية عن طريق هذه اللغة التي دعت
تراث البشرية في حقبة طويلة من الزمان ، دون ان
تضيق به او تعجز عنه .